المبحث الثاني

البناء الاسلوبي في سورة الطارق

التمهيد

كان ولا زال وسيبقى القرآن الكريم الى الأبد منارا يهتدي به الناس جميعا، فهو دستور متكامل يحمل بين طياته أصول الدين والرفعة الانسانية وضوابط الانظمة؛ فضلا عن سمة الاعجاز والتحدي وما نحو ذلك؛ فالقرآن الكريم يكمن اعجازه بمنظومه كلا وبمجموع اجزائه كذلك؛ فالحرف فيه معجز والسياق معجز وكل سورة فيه معجزة. لهذا فان سورة الطارق جزء من ذلك المنظوم الالهي وفيها تجسدت معالم الاعجاز المضموني والسياقي معا.

سورة الطارق هي من السور المكية ومن المفصل. يبلغ عدد آياتها سبع عشرة آية وترتيبها ضمن المصحف يقع في السادسة والثمانين، ويبلغ عدد كلماتها ٦١ كلمة في حين يبلغ عدد حروفها ٢٤٩ حرفا. وقد ذكر الشوكاني في كتابه فتح القدير ان هذه السورة نزلت بمكة إذ قال: " أخرج ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ بمكة " (١).

وذكر الزمخشري ان سبب نزول السورة كان بسبب اندهاش عم الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) أبو طالب لما رآه من نزول نجم – وهو في حضرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) – وما رافقه من ماء ونور إذ قال: " إنّ ابا طالب كان عند رسول الله (ص) فانحط نجم فامتلأ ماء ثم نورا فجزع ابو طالب وقال: أيّ شيء هذا؟ فقال عليه السلام هذا نجم رُمي به وهو آية من آيات الله فعجب أبو طالب فنزلت " (٢).

وتكمن أهمية سورة الطارق في ان سيدنا الرسول (عليه الصلاة والسلام) كان يشجع على قراءتها لما فيها من عظيم الفائدة والحسنات؛ لهذا قال (صلى الله عليه وسلم): " من قرأ سورة الطارق اعطاه الله بعدد كل نجم في السماء عشر حسنات "[٣].

وتتضمن السورة محورين رئيسين يجتمعان ضمن محور واحد هو العقيدة الاسلامية، فالمسلم مؤمن بقدرة الخالق عزّ وجل على الاطلاق ولا مجال للشك والريبة في نفسه لهذا انفرط من المحور العام محوران هما: قدرة الله تعالى أولا، وتحديه للانسان ثانيا. وتبلورت القدرة الالهية بخلق الانسان ثم موته ثم بعثه ونشوره ثم قيامته، فيما جاء التحدي عندما تحدى الله تعالى المشركين وكاد لهم كيدا لا يستطيعون الافلات منه؛ لذلك جعل العقاب سريعا (أمهلهم رويدا).

ولا يخفى على الجميع ان هذه السورة ومثيلاتها بارزة المعالم والخصائص الاسلوبية لوقعها الموسيقي المؤثر وتشظي دلالاتها ورصانة تركيبها، ولا جل ذلك لجأنا الى استخدام الآلية الاسلوبية لبيان قيمة السورة من النواحي المتعددة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾

صدق الله العظيم

سورة الطارق

المحور الأول: المستوى الدلالي

لا يمكن تحديد النص القرآني باشارات ثابتة وتحولات سطحية عابرة كونه ينفتح على أفق دلالية لا حصر لها وهذا هو سر الاعجاز القرآني، ولكن العمل في

ضوء المحددات التي يفرضها هذا المنهج أو تلك النظرية تحتم على الدارس السير باتجاه تطبيق معطيات المنظومة بحسب ما مرسوم لها والخروج بنتائج خاصة مهمة يمكن الاستناد اليها ولكن من غير عدّها خلاصة الأمر في ذلك؛ لكون التنوع الثقافي والاختلاف في المناهج والنظريات والتيارات يؤدي الى اختلاف في آليات التطبيق وبالنتيجة الاختلاف في النتائج.

وفي حدود المستوى الدلالي عبر المنظومة الاسلوبية نجد ان الدلالة في السياق النصي تتولد عبر اندماج قطبين رئيسين " هما الدال والمدلول اللذان يفصحان بالتحامهما عن فرز معنى محدد، وهو ما تعنيه الدلالة وتريده البحث عن المعنى المنتقل من كلمة ما . لذا فان هذا المستوى الدلالي أو السيمانتيك يبحث في دلالات الالفاظ والجمل والعبارات ومعانيها المتكونة من جدلية اندماج الدال بالمدلول وذلك في اطار السياق العام للخطاب " [٤]، وفي ضوء ذلك فان المستوى الدلالي يتحرك بمديات واسعة وينشر رؤاه بسرعة لان كل جزئية في نظامه لها دلالات خاصة، وباجتماع الدلالات الجزئية تتبلور الدلالة العامة أو البؤرة في السياق النصي كله، وعليه فان " نقطة اضاءة الدلالة في النص لا تكون في زاوية من دون أخرى وانما تتحرك لتشمل مجرياته، وعلى هذا يلعب العنصر الدلالي في السياق دور التمركز والمفسر في الوقت نفسه وليس شيئا طارئا مقحما فيه وذلك من حيث تحديد وابراز ما تحمله الجمل والعبارات من دلالات خاصة تحت مظلة السياق الآتية فيه ليشير ذلك كله الى رهان الدلالة بالنص " [٥].

وعلى وفق ما تقدم فإن النص القرآني الذي بين أيدينا يتحمل رؤى خاصة بحسب الآليات الاسلوبية التي نتبعها.وفي حدود الاطار الدلالي لمسنا ان سورة الطارق فيها ثنائيات كثيرة وهي تشتغل على مساحة النص كله وتتوزع بين الثنائيات الكلية والجزئية؛ والثنائيات الضدية، فضلا عن الأحادية في التشكيل الدلالي، ويمكن ايضاح ذلك على النحو الآتي:

أولا: الثنائيات الكلية والجزئية

توزعت هذه الثنائية على محورين هما ثنائية الخفاء والتجلي (الخالق والمخلوق)، والثنائية الزمكانية، ويمكن ايضاحهما على النحو الآتي:

أ - ثنائية الخفاء والتجلي (الخالق والمخلوق)

تجلت في هذه الثنائية قدرة الله سبحانه وتعالى على تعاطيه مع مخلوقاته وتوصيفه لها بلغة القسم والأمر والتحدي فلا مجاراة لامره لانه نافذ لا محال؛ فعزّ وجل اذا قال للشيء كن فيكون. هذه القدرة ارتسمت ملامحها بالخفاء الحقيقي لاسمه تعالى مع بقاء فعل قدرته وأمره وبيان وجوده عبر الضمير المعوض الهاء (انه على رجعه لقادر) وفعل الكيد (واكيد كيدا).إلاّ ان مخلوقاته تجلت واضحة في النص (السماء، الارض، الانسان) فتشكل بذلك الاصطراع الدلالي بكليته وجزئيته، كلية الله سبحانه وتعالى عبر قدرته على فعل الاشياء وجزئية المخلوقات التي تعمل على وفق أوامره ولا تنزاح عنها، فالسماء معلقة بامره، والمطر ينزل بامره، والارض تنشق ليخرج النبات بامره، ويولد الانسان وكل شيء بامره، وهذا كله يعني ان حضور الخفاء أقوى من حضور التجلي، فالله تعالى آمر والانسان مأمور، وهو خالق والموجودات كلها مخلوقات بامره. وبما ان بنائية الدلالة في هذا النص المقدس تتمركز في تحديه سبحانه وتعالى للانسان بدلالة لفت نظره الى عملية خلقه وكيف يولد فانه سبحانه وتعالى لم يتحد عبده بوجوده الصريح لفظا بل اكتفى بموجوداته المادية التي أقسم بها (والسماء والطارق، والسماء ذات الرجع، والارض ذات الصدع). فخلق السموات والارض والافلاك والنجوم والكون كله أعظم شأنا وهيبة من خلق الانسان؛ فكان الخفاء لاسمه تعالى معوضا عنه بتجلي مخلوقاته (السماء، الطارق، الارض) وهي كافية لتحدي الانسان، فهو يجهل سرها ولا يعلم خبايا ها سوى القليل والقليل جدا. وعليه فان سلطة الخفاء أكبر من سلطة التجلي بكل

بحضوره، وهذا يعني اتساع التوصيف الدلالي الى مديات واسعة لاتساع قدرته تعالى ولاتساع حجم الكون الواسع.

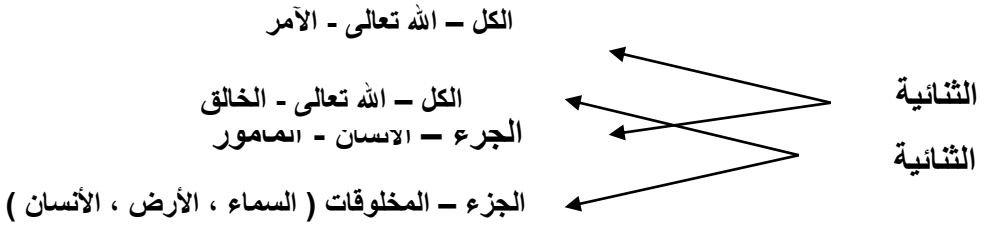

كما توجد ثنائية أخرى ضمن هذه الثنائية هي ثنائية الوجود (الخفاء) والولادة (التجلي)، فالحفظة على النفس لا حضور لهم في النص ولكنهم موجودون بخفاء قوي، وولادة الانسان تجل واضح.وسطوة الحفظة أكبر من سطوة الانسان لانهم يسجلون عليه كل صغير وكبيرة وقوله تعالى صريح في ذلك: ((مال هذا الكتاب لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها)) [٦]، فقوله تعالى: (ان كل نفس لما عليها حافظ) دلالة على وجود الكيان الانساني وهؤلاء الحفظة مقترنين به وهذا يمثل الكلية العامة لوجود النفس كاملة، في حين ان ولادة الانسان تمثل جزئية لانها مرحلة تالية (فلينظر الانسان مما خلق)، فالكلية هي النفس المحفوظة والجزئية هي بداية التكوين الانساني (الولادة).

ب - الثنائية الزمكانية

إنّ الكينونة البنائية في هذا النص القرآني تفصح عن وجود رصيد اسلوبي قوامه وجود دلالات فوقية تتمركز في ثنائية زمكانية تعمل على جعل النص صورة اشارية لها مدلولات نافذة في نفس المتلقي، فالامكنة ذات الفضاء المفتوح والأزمنة المجهولة الهوية توحي بانفلات دلالي يصعب تأطيره بفهم معلوم، وهذا ما جعل النص خزينا دلاليا لا ينضب؛ ففي كل قراءة تتجدد الرؤى وتختلف النتائج وهذا هو السر الاعجازي في النص القرآني. ومع كل هذا الاتساع والتشظي المعلوماتي في الجسد الدلالي استطعنا ان نلمس اشارات كفيلة بتقريب المضان الدلالي من ذهنية المتلقي، ويمكن ايضاح ذلك بحسب فصل المكان عن الزمان، وتقديم المكان على الزمان جاء من باب الاهمية أولا؛ ولابتداء سورة الطارق به ثانيا.

١ - المكان

ينطوي هذا المحور على تضاد مكاني احدهما فوقي (السماء، الطارق) والآخر سفلي وهو (الارض)؛ وتتمثل ابعادهما الدلالية في انهما صورتان ناشئتان من قدرة الله تعالى، وهي أبعاد تحتمل دلالات وثيرة لا حصر لها لاتساع الأفق المكاني، ولهذا فان الله تعالى ابتدأ بالقسم باكبر مخلوقاته (والسماء)؛ فالسموات السبع يجهل الانسان حجمها وهيئتها وما فيها من أسرار وبذلك يكون التشكيل الدلالي متسع الاقطار يصعب تحجيمه؛ فاتساع المكان يؤدي الى اتساع معالم الدلالة؛ حتى الارض فان الانسان يجهل الكثير فيها، وهذا يعني ان كل عملية تفحص وتدبر تؤدي الى معاني دلالية جديدة ونتائج غير مسبوقة، وهذا يمثل تحدي الله سبحانه وتعالى للانسان، فلانسان يجهل سر تلك المخلوقات فكيف له ان يتجرأ ليعرف كنهه تعالى.

تفتتح السورة بالقسم المرتبط بالدال المكاني الواسع؛ فالسماء فضاء مفتوح يحتمل الخير والشر وينفتح على أفق تداولية فيه الحركة ورؤية النهار والليل وتعدد الفصول وما نحو ذلك، فهو قسم له دلالات متشعبة لتشعب الفضاء السمائي، فالسماء مكان كلي مقترن بمكان جزئي وهو النجم الطارق، ودلالات الطارق كثيرة اهمها القوة والنفاذ والسرعة وهذه بحد ذاتها اشارات مفتوحة تجعل الانسان يتحيّر منها. كما ان مدلول كلمة الطارق يتحول الى بؤرة توليدية لتكون هذه البؤرة سببا لنتيجة، فتولد عن الطارق فعل الثقب والنفاذ وتدمير الشيء الذي يقابله، فهنا البؤرة استغلت منذ البداية بتوليد توليدي بؤرة كبيرة السماء الى صغيرة الطارق ونتج عنها القرار (النجم الثاقب) ليتحول مسار البعد المكاني الى آخر انساني، أو قل هي ثنائية متعاكسة تتمثل بالنزول من الاعلى (السماء) الى الاسفل (الارض) لمخاطبة أهم ما فيها وهو الانسان، فقدرة الثقب للنجم الطارق دلالة على قدرة المكان الفوقي على تحطيم المكان السفلي (الارض)، وقد تحقق البعد الدلالي هنا عندما ابتعد الدال اللساني (الطارق) عن مساره التقليدي من حيث تحقيق الضربة الدلالية الثابتة المتجسدة في احداث فعل الطرق، إذ ان الفجوة اتسعت بين الدال والمدلول في بعدها التداولي

لتتحول الدلالة من الثبات الى الحركة، فالدال الطارق لم يعد يطرق بل ينفذ كذلك وبقوة، فهو ثاقب لا يستطيع احد الصمود أمامه، فالبعد التداولي اسلوبيا للدال (الطارق) تخطى حدود بقائه كنجم في السماء وانتقل ليكون مقابلا للارض ومهددا لها. وهذا يعطي اشارة دلالية بالوجود الارضي امام العلوي السماء من دون التصريح بذلك؛ إلا ان التصريح جاء علنا بقوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ ﴾ فالسماء هنا قابلت الارض وكانت سببا لنتيجة؛ فلولا نزول المطر من السماء لما تحيى الارض ويخرج نباتها، فدلالة السماء ايجابية والارض سلبية لتتحول بعد ذلك الى ايجابية. وهذا يعني ان سعة السماء دلالة على سعة اشاراتها الدلالية فهي اكبر من الارض ولولاها لهلكت الارض، وعليه خلق المكان بنوعيه الفوقي والسفلي ثنائية متعددة الدلالات وكلها تصبّ في تحدي الانسان لمحاولة جعله يتدبر ويتفكر بقوة الله تعالى لقوة مخلوقاته وسرها المجهول التي عجز الانسان عن معرفة خباياها كلها، فالمكان قد وظف في هذا النص كاشارة مخفية للتحدي.

٢ - الزمان

إنّ زمنية النص هنا مفتوحة، وهي اشارة دلالية أخرى على تحدي الانسان وهو تحد صريح؛ فبعد ان جهل الانسان ويجهل سر السموات والارض وما فيهما فانه يجهل هنا زمنية وقوع الاشياء وحدوثها؛ فالله سبحانه وتعالى تحدى الانسان ان يعرف زمن تكوينه ومتى يخرج الماء المتدفق من صلب الرجل وترائب المرأة؟ ومتى يموت؟ ومتى سيبعث من جديد؟ ومتى يوم القيامة؟ كلها صور واضحة من التحدي الالهي لعبده، ويبدو ان دلالة الزمان المفتوح تعني الاستمرارية في الحياة حتى ان الفعل المضارع أتى بقوة ليؤكد هذه الدلالة (فلينظر الانسان مما خلق) (يخرج من بين الصلب والترائب) فالفعل المضارع خلق الاستمرارية في الزمان، وهذا يعني ان استمرار الحياة تحتم على كل انسان تدبر خلقه كيف هو، وان يترقب ساعته التي هي ليست معلومة، فالاستمرارية في الزمن خلق الاستمرارية في التفكير

لدى الانسان، و هي دلالة على حيوية النص وتشعب دلالاته، لان لكل انسان رؤية خاصة بعملية خلقه بحسب ثقافته وعلمه وعقيدته التي يدين بها، وهذا يولّد اختلافا في الرؤى ومن ثمة خلق معالم جديدة من الافكار والحسابات، حتى ان زمنية الطارق مفتوحة كذلك فلا يعلم متى ينتهي عمر ذلك النجم ويتهاوى ويسقط محدثا الدمار الكامل بثقبه وقوة تحطيمه وسرعته؛ فهي زمنية مفتوحة لخلق الاستمرارية في الحياة و من ثمة خلق التحدي المستمر للانسان وجعله في دوامة التفكير والانشغال بالله وصنعه، ويمكن ايضاح ذلك على وفق الخطاطة الآتية:

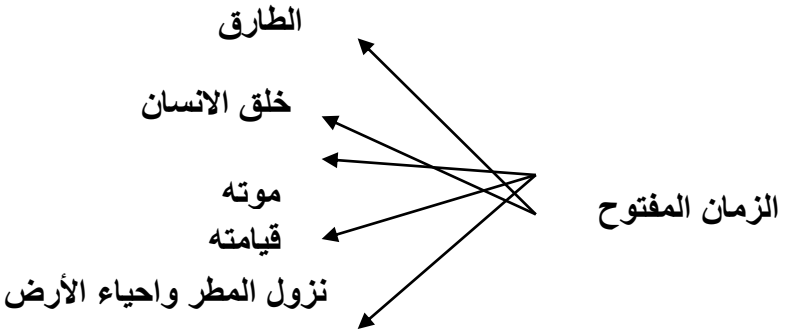

كما ان نزول المطر واحيائه للارض فيه زمنية غير محددة فلا يعلم الانسان متى تمطر السماء ومتى تتفتح الارض ويخرج زرعها؛ فاختلاف المناخ يؤدي الى اختلال الازمنة المحددة، وهذا يعني في النهاية انه حصل ضمن نطاق الاطر الزمنية خلل في تحديد الهوية وذلك من جراء التحول الدلالي بين الماضي والحاضر والمستقبل وكلها زمنيات مجهولة هدفها تحدي الانسان.

ثانيا: الثنائية الضدية (ثنائية الحياة والموت)

تمتد البورة الاسلوبية الممثلة بالانسان في هذا النص المقدس نحو مديات التشكيل الدلالي التي تعمل على جعل النص كلا بيئة اسلوبية صالحة للرصد؛ فالبؤرة الاسلوبية (الانسان) جزء من ذلك التشكيل بل احد عناصره الرئيسة؛ لان الانسان هو

محور النص ومنه واليه ينتهي الأمر. هذه البؤرة خلقت حالة من التوصيف المدمج لبناء الهيكلية الانسانية جمعاء، وتبلور ذلك بازدواجية الحياة والموت عنده، إذ ان هذه الثنائية جعلت المنظومة الدلالية تأخذ طابع الاصطراع لتنافر معطيات كل واحد منها؛ فالحياة في تضاد دائم مع الموت وكلاهما ذو دلالة لدى الانسان. لذا جاء النص القرآني بهما لجعل الانسان منشغلا بهما ويتدبرهما، وهو امتحان صعب له يمثل في جوهره تحد من الله سبحانه وتعالى. ولرسم ابعاد كل صورة تبلورت دوال عملت على مساندة تشكيل الانبناء الدلالي في تفرعه الجزئي، وهذا يتضح في خلق الانسان والدوال المساندة، وتواصله في الحياة والدوال المساندة، وموته وبعثه ونشوره والدوال المساندة، ويمكن وضع خطاطة ننطلق منها في عملية التحليل..

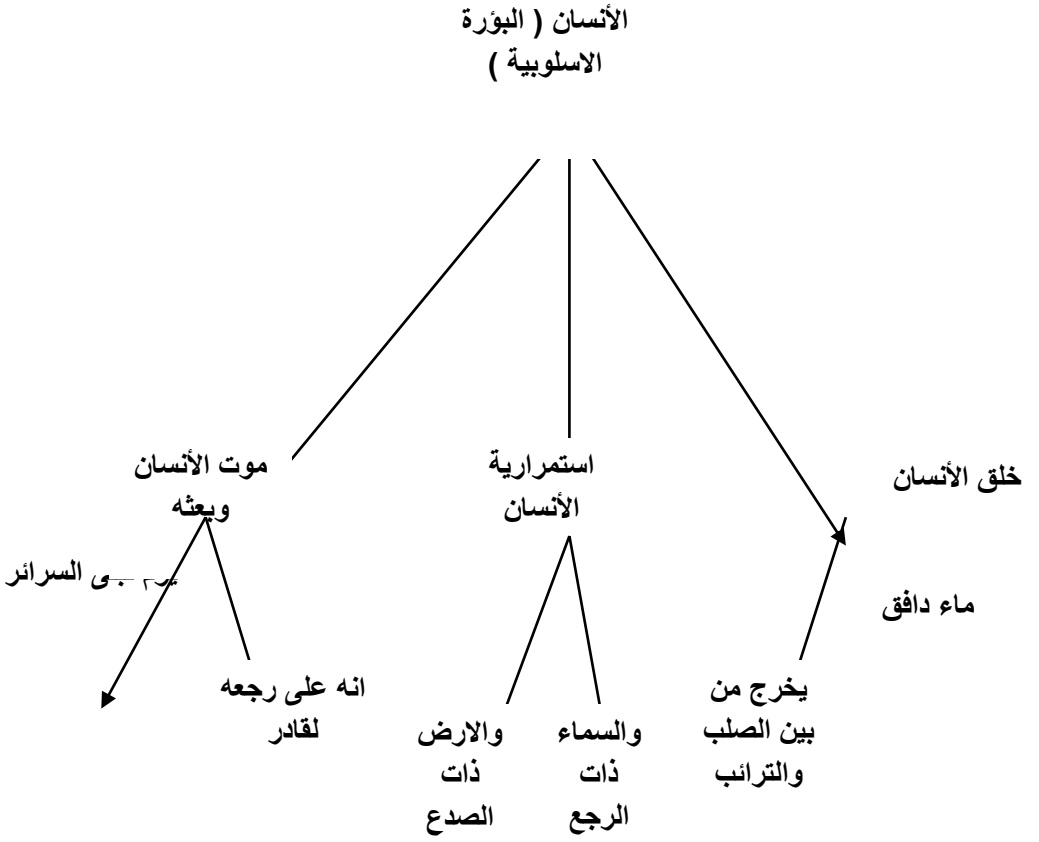

فنلاحظ هنا ان خلق الانسان يتوالد منه الانبعاث الحقيق للخصب والنماء والحيوية لامكانات الدوال الاشارية، فالدال اللساني (الماء) تتشكل دلالاته على مساحة كبيرة لانه يدل على الديمومة والنماء والحركة؛ فهو ذو حيوية فاعلة، كما انه في الأصل مدفوق وليس دافق فقد حل الدال (دافق) بدلا عنه لمناسبة الايقاع في النص ولتحول المسار الدلالي ليتوافق مع الفعل يخرج؛ فهو ماء يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، وهذه اشارة دلالية على تواصلية الحياة بين الاثنين ولا سيما ان الدال اللساني (يخرج) دلالته واسعة؛ فهو يفلت من زمام القيد ويبصر معالم أخرى ليحقق مكاسب جديدة فكلا المائين يخرج ويتحرر من أسر الرجل والمرأة معا محاولا الالتقاء في رحم المرأة ليتكون الجنين، فدلالة الخلق في توصيفها العام ايجابية للحيوية والحركة التي تبناها الدال اللساني (الماء، والخروج).

هذه الولادة تتطلب المواصلة الحياتية وتحقق ذلك على صعيد الرصد الاسلوبي ممثلا بازدواجية الفعل الثنائي بين السماء والارض؛ فالسماء سبب والارض نتيجة؛ فالوسع المكاني لدالي السماء والارض برهان دستوري على حتمية التشظي الدلالي، أي ان مجالات الحياة واسعة وطرقها سالكة لوسع السماء والارض، كما ان ايجابية الدلالة تتأتى من دلالة المطر (الماء) لتحقيق الانسابية الدلالية في الديمومة والمواصلة، ولقد أدى المجاز هنا دوره في زيادة الفاعلية الاسلوبية؛ إذ ان استخدام مفردة (الرجع) لها دلالات أكبر واعمق من مفردة المطر، فالرجع فيه اشارة صريحة على تكرار المطر وتوالده مرات عدّة، وهذا يعني خلق الاستمرارية للديمومة الانسانية؛ فكثرة المطر يحيي الارض ويرويها ويدفع الى اخضرارها وافادة الانسان من زروعها للعيش. لهذا فان الوسع المكاني في الدالين؟(السماء، الارض) وما ينتج عنهما من خير يصب نهاية في مصلحة الانسان لمواصلة حياته؛ لذا فهو استعمال في محله على مستوى المفردة والجملة لرسم ملامح التوصيف الدلالي في الحاضنة الاسلوبية.

هذه الديمومة ينبغي لها ان تخفت ويذهب بريقها ويتحقق ذلك عبر الفناء الانساني المتجذر في الموت؛ فالتحدي الالهي للانسان الضعيف جاء واضحا في قوله تعالى: (انه على رجعه لقادر)؛ فقدرة الخالق تبارك وتعالى كفيلة بارجاع الروح مجددا؛ فهو المحيي والمميت وهو قادر على ارجاع الماء المهين مكانه كما يذكر عدد من المفسرين او على بعثه من بعد موته. وعودته تكون يوم القيامة (يوم تبلى السرائر) فالموت تطلب التأكيد وجاء ذلك بقوة المؤكد (انه) أي لا مجال من الافلات من قبضته تعالى فهو القادر على كل شيء والقاهر لعبده ولمخلوقاته جميعا.

هذه الثنائية جعلت من النص بؤرة دالة لدلالة الانسان على وجوده.

ثالثا: أحادية الحركة وغياب السكون

تعتلي النص القرآني هذا نتوءات حركية تعد من المهيمنات الاسلوبية ضمن قاعدة الرصد الاسلوبي، وتشكلت هذه النتوءات لاحداث خاصية التصعيد في التكثيف الدلالي لخلق هيمنة حيوية تتناسب وحيوية الدلالة التي تتمحور في حركة الكون وخلق الانسان واستعداده ليوم القيامة؛ فكل ذلك سمة حركية لتنشيط الدلالة على العموم وجعلها تتشظى الى جزئيات متفرعة لها مدلولات اعمق؛ وباندماج الكل بالجزء أو العام بالخاص تتولد قناعات كاملة باهمية ما عرض وقيل في هذا النص وغيره كذلك.

لقد توافقت الدلالة الحركية مع دلالة الخلق الانساني، فاستمرار الخلق الانساني يعني استمرار للحركة المحيطة به، وهذا يعني بحسب السلم الدلالي امتشاج الدلالتين لتشكيل صورة كبيرة ممثلة بقدرة الخالق سبحانه وتعالى بالتحكم بالاشياء، ولهذا نرى ان النص ينزع الى الميل نحو التجديد والحركة ولا شيء متوقف.فالسكون قد غيب تماما واخذت الاشارت الحركية بالسيطرة على مجريات النص ويمكن ايضاح ذلك في هذا المخطط :

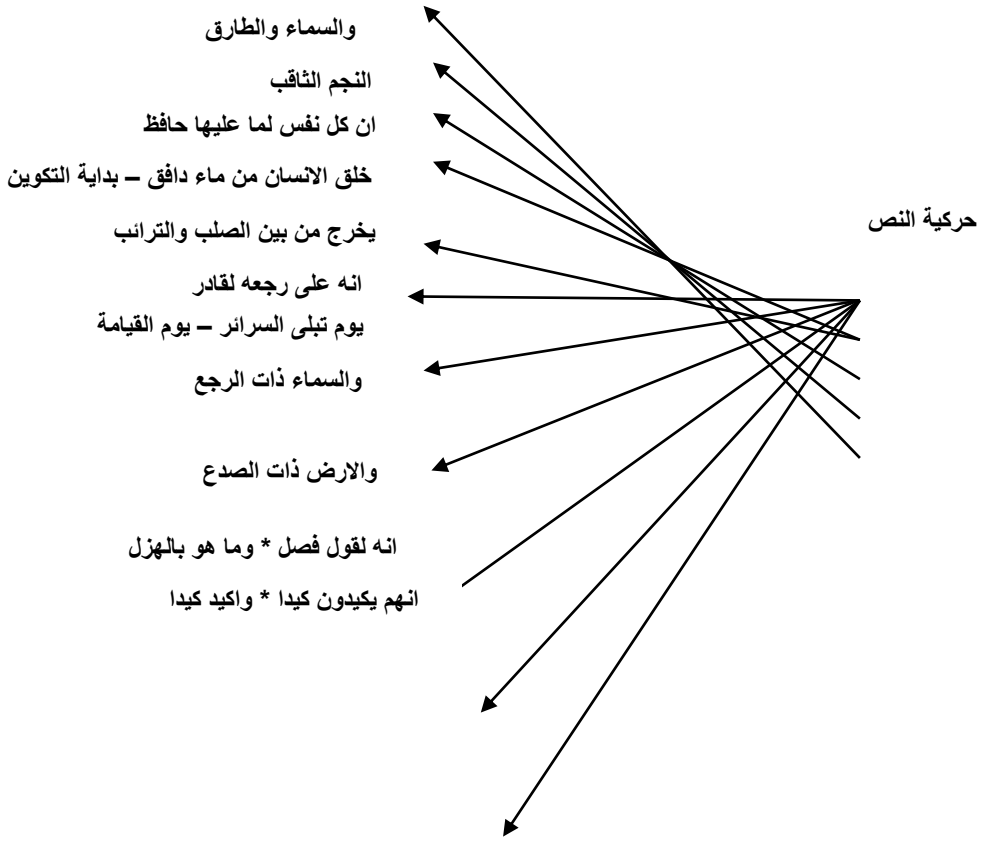

نلاحظ هنا ان الاشارات الحركية توزعت على نحو منتظم على جسد النص محدثة تناغما دلاليا، فقد شكلت باتحادها بؤرة دلالية واحدة تعين النص على تحقيق مكاسبه التأثيرية في المتلقي.إذ ان كل جزيئة من الدلالة الحركية لها وقعها المؤثر في النفس الانسانية؛ فالسماء والطارق والارض موجودات متحركة متغيرة تخدم عملية الخلق الانساني وتصطرع مع نفسه بتجاذبات وتنافرات لها شأنها في جعله يعيش في حركية وجودية مادية، فهي له وعليه في الوقت نفسه. كما ان النفس الانسانية بعد وجودها تكون محفوظة من ملكين يسجلون ماله وعليه من الحسنات والسيئات، و هذا يعني استمرار حركة المتابعة طالما ان الانسان موجود على قيد الحياة، فضلا عن ان اسلوب ولادته مبني على الحركة فهو يخرج من ماء الرجل والمرأة، فالطبيعة المائية

سيالة غير متوقفة ودلالتها الحيوية واللانتهاء ولاسيما اذا ما كان مدفوقا اي بقوة وسرعة، كما ان الدال اللساني (يخرج) له مدلولان، الأول ان زمنيته مفتوحة لانه يعمل في حقل الآن وهو مستمر بالاداء بحسب ما كلّف له، الثاني انه قد تحرر من قيد الأسر فالخروج ناتج عن انحباس وتضييق؛ وبذلك انفتح على عالم جديد هو غير عالمه، فخروج الماء من الرجل والمرأة تحرر له وانتقاله من حالة العدم الى حالة الوجود فامتزاج المائين معا سيكوّن طفلا و هي هيئة التكوين الانساني، و هذا كله يسبح في حركية محورية غير متناهية إلاّ بنهاية العالم.

هذه الحركة الوجدودية تتبعها حركة الفناء، فحركة الموت والبعث والنشور والعرض يوم القيامة تدفع بحركة الوجود الانساني نحو الخلف وتنتصر عليها، فلا بد من موت الانسان في النهاية مهما طال به الزمن، وتمثل الحركتان الوجودية والفنائية حركة واحدة بابعاد ثلاثية البداية (خلق الانسان)، الوسط (موته)، النهاية (قيامته)، وبذلك يكون الانسان بؤرة اسلوبية تتمحور حولها حركيات متعددة.

وكما اشرنا سابقا ان السماء بمطرها المتكرر وهي دلالة على الحركة الفوقية، وما تؤديه من احياء الارض وبروز ثمرها لديمومة الحياة على وجهها و هي دلالة الحركة السفلية تعد اثراء للحياة فالاول سبب للثاني وهكذا دواليك، اي تواصل غير متناه إلاّ بنهاية العالم، فضلا عن ان فعل الكيد والقول و عدم الهزل بالأمر كله يعد لونا حركيا متقوقعا في جسد الكلمة نفسها، ولكن له تأثير في النفس، وهو في جوهره سمة دالة على الحركة للمجاذبات التي ينطوي عليها فعل الكيد (يكيدون واكيد) وكذلك الجدل في القول والهزل.

اذن في المحور العام انكسرت السكونية وتصدرت الحركية بجميع مفاصلها لتعلن أحقية الانبناء النصي على وتيرة من الديمومة والمواصلة ليقترن ذلك مع الفعل الالهي القاضي بتحدي الانسان وجعله يتفكر في عملية خلقه و ماهو مصيره في النهاية ولمن الغلبة.فالحركية الاسلوبية تواشجت مع حركية القدرة الالهية في كل زمن وحين.

المحور الثاني: المستوى التركيبي

تتمايز النصوص فيما بينها بمقدار تنوع الصياغات التركيبة وما تقدمه تلك الصياغات من تلونات تدخل في اطار كسر اللغة وتحويل المسار باتجاه تبني غير المألوف لانتاج اساليب تتزين بمدلولات عدّة، أي ان التغيير يحصل بفضل التلون التركيبي الذي يتجاوز على القواعد العادية ويبني بنيانه الجديد لتحصل عملية الابداع الفني.وهذا يتم عبر التلاحم بين العناصر الأخرى لان " النسج التركيبي يعد عنصرا مهما الى جانب العناصر الأخرى التي لا يمكن ان تنهض بمهامها دونه " [٧]. ويؤدي التلاحم الى افرازات بنائية جديدة تحمل بين طياتها مدلولات عدة، وتنشأ هذه المدلولات عبر تقنيات كثيرة يأتي بها التركيب لتخدم النص. وعلى وفق هذه الأهمية فان الاسلوبية تتعامل مع هذه التلونات لكشف الحجب عنها والافصاح عن كينونتها الدلالية، فهي بذلك على تماس مباشر مع التركيب وقد " أولته اهتمامها من حيث دراسة الجملة في حدود النص. أي اهتمامها بالانتاج الكلي للنص الأدبي ووصف ذلك البناء الاسلوبي باكمله " [٨]. وهذا يعني ان عملية الصوغ التركيبية ورقة رابحة في تشكيل المعاني والدلالات في أي نص، أي ان " عملية توالد المعاني تأتي عن طريق التوظيف المتميز للجمل، فضلا عن ممارسة الخرق فيها " [٩].

وفي حدود قراءتنا لسورة الطارق رصدنا مجموعة من السمات الاسلوبية التركيبية الطاغية فيها لبيان أهميتها وما احدثته من فائدة وخدمة للنص القرآني المبارك. وقد حصرنا عملية الرصد في ثلاثة اتجاهات يمكن عرضها كالآتي:

أولا: القسم

مثل القسم في هذه السورة انفتاحا دلاليا غرضه ترسيخ قدرة الخالق في ذهن الانسان، ولاهميته اشطر ليكون دلالتين متفرقتين تأتي بعدهما الجمل لتؤكدهما، وتمثلت الدلالة الاولى في مفتتح السورة (والسماء والطارق * وما ادراك ما الطارق) والثانية في الوسط (والسماء ذات الرجع * والارض ذات الصدع)، هاتان الدلالتان

المتقابلتان مثلتا عنوان تحدي الله تعالى للبشر، و لزم ذلك ان تكون الجمل البانية المتتالية بعد العنوان متوافقة معه وداعمة له لتوكيد الخبر؛ لان القسم على الرغم من كونه اسلوبا انشائيا غير طلبي مثلما يذكر علماء البلاغة " إلاّ ان حقيقته لا تعدو ان يكون وسيلة من وسائل توكيد الخبر " [١٠]، فالقسم الأول كان مفتاحا لتحدي الانسان بتدبر خلقه ومدى ضعفه لانه سيموت ويبعث ويحاسب، أمّا القسم الثاني فكان مفتاحا لانتهاء الأمر وخضوع الانسان لاوامره تعالى لان قسمه قسم محتوم فلا مفر للانسان من قبضته لهذا فلا ينفعه كيده أمام كيده تعالى. وعليه فالقسم اسلوب تركيبي مهمته لفت الانتباه لما سيأتي من تقرير للاخبار والاحداث والجمل التالية له تحقق له الاهمية والاهلية. وهو في أصله يأتي للتوكيد، وقد أشار فاضل السامرائي الى ذلك بقوله: " الغرض من القسم توكيد الكلام وتقويته؛ فاذا أقسمت على شيء فقد أكدته " [١١].

والقسم بقسميه استند الى الدال (والسماء) وهو دال يدل في بعده المعنوي على السماء المحيطة بالارض والمرئية من الانسان وما تحويه من خير وشر، ولكنه يمثل على البعد التداولي انسلاخا من بعده المكاني وتشظيه الى أبعاد رؤيوية كثيرة لدلالة الوسع المكان، فالسماء فضاء مفتوح مجهولة في هويته اسرار عدة لا يعلمها الا الله سبحانه وتعالى ولهذا أقسم به، فهو اذن على المستوى الحقيقي مكان مرئي مرتفع، وعلى المستوى المجازي المخبوء فضاء متسع يحمل بين طياته معالم مخبوءة يجهلها الانسان. وعليه تحداه سبحانه وتعالى في المستويين معا، فالانسان لا يستطيع ان يجوب المكان السماوي كله، ولا يستطيع ان يجعله بمستوى الارض، و هذا تحد على المستوى الاول، اما على المستوى الثاني فلا يستطيع الانسان كشف كل اسرار تلك السموات، فهو لا يستطيع التحدي على المستوى المكاني فكيف يستطيع التحدي على المستوى المجهول. وهنا تكمن قيمة القسم الملائم للمقسم.

ولكي تكون دلالة القسم نافذة وجب ان تأتي الجمل التالية لها في مستوى ثابت من التحدي والعلو لبيان حالة الضعف الانساني ازاء الطبيعة الكونية التي خلقها الله

تعالى، وقد جاءت الجمل التالية للقسم تقريرية متخذة من الجمل الاسمية عنوانا لها لاقرار حالة التحدي، وكذلك الاتكاء على الفعل المضارع لخلق حالة الاستمرارية في تقرير الخبر وتوكيده، وقد تعاضدت الجمل الاسمية مع الفعل المضارع لجعل النص القرآني وحدة متكاملة توجيهية للتناسب مع القسم المكتمل.

ولبيان الاتصال الجملي المكمل للقسم للوصول الى الدلالة الاخبارية نجد ان القسم الأول (والسماء والطارق) حمل دلالة خبرين متتابعين: الأول يخص الاجابة عن ماهية الطارق، والثاني الافصاح عن القدرة الالهية في خلق الانسان وتحديه في ذلك. فجملة النجم الثاقب ارتبطت بالقسم الطارق والى بيان كنهه ولهذا جاء الجواب سريعا بالقول (النجم الثاقب)، لذا فهي جملة تالية للقسم المجهول مهمتها الافصاح عن كينونة ذلك القسم وجاء الافصاح بانه نجم ثاقب مدمر.

أي ان القسم بالسّماء ربما شيء نعرفه أي نعرف السماء ماهي بحدود ما فضّل الله به علينا من فهم في هذا الجانب، ولكن القسم بالطارق هو الذي حرك دلالة السورة لاننا لا نعرف ما هو الطارق. لذا استفهم الله تعالى هنا لبيان عظمته واعطت السورة الجواب للشيء الذي نجهله مباشرة بقوله تعالى (النجم الثاقب).كما ان دلالة الجزء من الكل فيها دلالات اكبر واعمق، فالسماء هي اكبر من الطارق أي النجم المخترق السريع إلاّ ان السورة التي ورد بها هذا النجم تحمل اشارة واضحة هو ان الجزء الصغير من فضاء تلك السماء قوته ووقعه أكبر فكيف اذن السماء برمتها.

والنجم الثاقب كما يذكر الشوكاني : " خبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدّر نشأ مما قبله كأنه قيل: ماهو فقيل النجم الثاقب " [١٢].وهذا يعني ان القسم مازال سار المفعول ومؤثرا في الجمل التالية عليه لزيادة اللحمة وتشكيل وحدة عضوية متكاملة. وبعد هذا الاتصال والافصاح عن هوية الطارق بانه نجم ثاقب تحول المسار الدلالي نحو الادلال على التكوين الانساني من الولادة حتى الوفاة والبعث والنشور والقيامة، اي انها سلسلة جملية متواشجة مهمتها ترسيخ دعائم القسم ليتناسب مع المقسم وهو الله تعالى، اي انه تحد منه تعالى للانسان بتدبر خلقه

ومشاهدة ضعفه واستكانته أمام قدرته تعالى. فجملة (فلينظر الانسان مما خلق) جاءت جوابا لشيء مضى الاستفسار عنه و هذا يعني تواشجها مع ما قبلها وارتباطها بما بعدها لتشكيل الهيكلية النهائية للدلالة المراد ايضاحها، فالشوكاني يرى ان هذه الجملة امتداد لما سبق اذ قال: " فإن قلت ما وجه اتصال قوله (فلينظر) بما قبله؟ قلت: وجه اتصاله به انه لما ذكر ان على كل نفس حافظا أتبعه توصية الانسان بالنظر في أول أمره ونشأته الاولى حتى يعلم ان من انشأه قادر على اعادته وجزائه فيعمل ليوم الاعادة والجزاء " [١٣]. و هذا يعني ان القسم مازال مؤثرا فيما بعده من الجمل لان جملة (فلينظر الانسان مما خلق) كانت جوابا لما قبلها و هي جملة (ان كل نفس لما عليها حافظ) التي هي في أصلها جوابا للقسم المفتتح به في السورة (والسماء والطارق).أي جملة (ان كل نفس لمّا عليها حافظ) مثلت حلقة تواصل دلالي بين القسم الاستهلالي في بداية السورة لانها جوابا له، و بين التحول الدلالي المتعلق بالتكوين الانساني المتمثل بجملة (فلينظر الانسان مما خلق) التي هي جوابا وافصاحا لها، وهذا يمثل تواشجا دلاليا غرضه التأثير في النفس الانسانية ومحاولة التنبه الى قدرته تعالى في صنع الاشياء ولا سيما هنا التكوين الانساني؛ كما ان دخول لام الأمر على الفعل المضارع هي لتأكيد حالة الاستمرارية لاستمرار حالة الخلق الانساني ومهمة لام الأمر هي لبيان حكمة الله تعالى للناس اجمعين، لان الآمر هو الله والمطيع هو الانسان الذي يجب عليه ان يسمع وينفذ. وبعد هذا الجواب تنفرط بعد جملة (فلينظر الانسان...) الاستدلالات الخاصة بالنشئة الانسانية فهو يخلق من ماء دافق يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة، وانه تعالى قادر على ارجاع ذلك الماء الى مكانه، ويتوعد الانسان بموت وبعث ومحاسبة يوم القيامة وانه لا يملك ساعتها من يناصره في محنته، ولكي تكون الصورة الدلالية مكتملة الاركان نجد ان الجملة الأخيرة (فما له من قوة ولا ناصر) من سلسلة الجمل التالية للقسم الأول (والسماء والطارق) مثلت خلاصة الضعف الانساني أمام قدرته تعالى فهو تحد صريح منه تعالى بان لا قوة للانسان بنفسه لازاحة الخطر عنه بحسب اعماله ولا مناصر له

كذلك فهو وحده سيعاني مما اقترفته نفسه من اعمال غير صالحة، فهي اذن على المستوى النحوي التركيبي جاءت مفصحة عن النفي؛ ففي هذه الجملة ورد نفيان عن طريق الاداة (فما، ولا) وهي دلالة حتمية للنفس الانسانية وهذه نهايتها.

وبعد ان فرغ الله سبحانه وتعالى من دليل التوحيد والمعاد عبر التركيز على النشأة الانسانية ونهايتها، أقسم مجددا بالسماء الذي هو دال ذو ابعاد متحركة لكي تتحرك الدلالة نحو اكمال ما تم البدء به، فالانسان بعد ان خلق يسعى لان يكابر ويعاند ويكيد المكايد لكي يبقى ويعيش حياته بالصورة التي يريدها لا التي يريدها له الله تعالى فتأتي النتيجة مجددا بسيطرة قوته تعالى على القوة الانسانية ولا مفر يومئذ من قبضته.فقد اقسم الله بالسماء المحملة بالخير لانها متكررة الرجع أي المطر، ودلالة المطر ولا سيما عبر تكراره مرات عدة دلالة قائمة على الخير والخصب والنماء، وقد رفدت هذه الدلالة بما يحقق لها الصفة الخيرية عندما اقسم الله بالارض الخصبة التي تخرج زرعها بعد ان يتكرر المطر عليها، فالدلالة الايجابية توزعت بين نزول المطر وما ينتج عنه من اخضرار الارض وازدهارها لبعث الحياة فيها، وقسما بهذه المخلوقات (السماء والارض) فلا مفر للانسان يوم القيامة ودلالة ذلك ان الكلام الذي قيل هو كلام جد لا هزل فيه فجملة (انه لقول فصل * وما هو بالهزل) مثلت المقسم عليه للقسم (والسماء، والارض)، فهنا تحد صريح آخر منه تعالى للانسان بان كلامه نافذ ولا مبدل لكلامه، لذا وجب الحذر والعمل بمقتضى حكمه، ومع ذلك يصر الانسان على المكابرة والعناد ليحاول المكر ولكن لا مكر نافع أمام كيده ومكره تعالى لهذا جاءت النتيجة سريعه بان توعدهم الله وان موعد الفصل ليس ببعيد فامهلهم رويدا أي قليلا من الوقت ثم انتقم منهم. فالنتيجة هي واحدة استكانة الانسان وضعفه فلا حيلة له بنشأته وكيف يكون ومتى يموت ويبعث، ولا حيلة له بالخلاص من العذاب لهذا لا يجديه مكره وخداعه فالغلبة لله تعالى.

ثانيا: التوكيد بـ (انّ)

إنّ تلون التركيب في هذا السورة المباركة أفضى الى تشكيل جديد يحتاج الى الوقوف عليه.وان كل تقنية جاء بها التركيب هي لخدمة أطر النص ومعانيه وعدم الخروج على بؤرة القسم المسيطر على كل شيء، فالتكرار والتوازي وصيغة اسم الفاعل وغير ذلك مثلا كلها جاءت في اطار التركيز والتأكيد على ملمح دلالي هو تحدي الخالق لمخلوقه، وهو ما اشرنا اليه في اكثر من موضع، فعلى مستوى التركيب برز الى جانب القسم اسلوب التوكيد بـ (انّ) لتفعيل قدرة النص على التشكيل الدلالي؛ اذ لا مجال للانزياح عن الفكرة المحددة لان المؤكدات الصوتية والتركيبية قد اجتمعت وجعلت من النص القرآني المبارك وحدة متكاملة لا يمكن فصلها، ومع ذلك فان التوكيد بـ (انّ) جاء واضحا لازالة الشك وقبول ما تأتي به الآيات، ولاسيما ان ورودها جاء في الجمل التقريرية التابعة للقسم لزيادة قدرة التأكيد على القسم وما تفضي اليه الجمل التي تشير الى عظمة الخالق وامهال عباده فرصة النجاة. أي ان الجمل التقريرية قد اؤكدت بـ (انّ) وفعّلت بذلك السورة، وقد أشار عبد الفتاح لاشين الى ان عبد القاهر الجرجاني كانت له رؤية صائبة باهمية التوكيد (بان) إذ قال : " إنّ التأكيد بـ(انّ) يكون للمتردد الشاك والمنكر، وذهب الى ان خال الذهن لا يؤكد له الكلام وانما يؤكد الكلام بـ(ان) في حالة الانكار والتردد " [١٤]، وهذا يعني ان الانسان لتردده وشكه في خلقه وموته وبعثه وقيامته احتاج لان يكون في النص مؤكد بل مؤكدين ليعتبر، وقد ورد مؤكدان في آيتين وذلك بمجيء اللام المزحلقة للتوكيد الى جانب ان المؤكدة مما يخرج الخبر الى خبر انكاري، وقد استحسن الجرجاني " الجمع بين اللام وان في مخاطبة المنكر " [١٥] . ويمكن ذكر المؤكدات التي وردت في السورة:

﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴾ .

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾ .

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴾.

فلو تدبرنا الجمل المؤكد التي أمامنا نجد انها جمل على محور آخر من السورة، فسورة الطارق ابتدأت بالخبر الابتدائي الذي لا يحتاج الى مؤكدات فجاء القسم الالهي بالسماء والطارق على هذا النحو من الجمل، فلا مجال للشك من الانسان بذلك، ولكن عند تحول المسار الدلالي نحو الخلق الانساني ومدى تحدي الخالق لمخلوقه ومحاولة عصيان الانسان لأوامره تعالى احتاج الأمر الى نوع آخر من الجمل لزيادة الفائدة وازالة حالة الشك التي تربعت في نفس الانسان بشأن خلقه ومصيره النهائي فكان الخبر الطلبي هو المفتاح في ذلك، ولاجل إزالة الشك من النفس الانساني احتمل السياق النصي خبرا انكاريا وقد تواتر مرتين الأول في قوله تعالى: (انه على رجعه لقادر) فلا مجال للانسان من ان يعارض القدرة الالهية؛ لان الذي أوجده قادر على ان يعيده الى أصله مرة أخرى. والثاني في قوله تعالى: (انه لقول فصل) أي ان كلام الله نافذ ولا مجال للشك في وقوعه، وعليه فقد ورد في الجملتين السابقتين مؤكدان هما (انّ، واللام المزحلقة). ودلالة مجيئهما في السياق هو للتأكيد لان " دخول لام الابتداء على خبر ان انما هي لمعنى التأكيد الذي يخدم السياق " (١٦).

واذا ما حاولنا تفحص الجمل على المستوى الموضوعي نجد انها جاءت متواشجة مع مضمون السورة كلا، لهذا كانت المؤكدات ذات فائدة في تأصيل التركيب النحوي وتحريك الابعاد الدلالية نحو مضانها. ولتقريب الصورة أكثر نجد ان الجملة الأولى (انه على رجعه لقادر) قد افادت المحور الدلالي الخاص بتفكير الانسان بخلقه وان نهايته بيد الله تعالى فهو قادر على ارجاعه الى سيرته الاولى وهي النطفة واماتته وبعثه ونشوره من جديد. أي ان الشك الانساني الدائم في كل شيء ولا سيما فيما يتعلق بنشأته تطلب من السياق النصي ان يكون قادرا على ازالة ذلك الشك فكان التؤكيد بـ(انّ) مفتاحا صالحا لذلك.

ولكي تكون الصورة مكتملة لتحقيق الكينونة الدلالية للتأثير في الانسان وجب ان تكون في السياق النصي للسورة جملة أخرى داعمة للاولى لازالة ذلك الشك، وتبلور ذلك في الاصرار على ان الأمر خالص بيد الله ولا مفر للانسان من حقيقة نشوئه وموته فكان القرار الالهي حاضرا هذه المرة ممثلا صدق كلام الخالق وان لا مجال للشك في المصير الانساني فكانت الجملة ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ ﴾ مفتاحا آخر لزيادة الفائدة التوكيدية ليعترف الانسان بضعفه أمام قدرة الخالق لانه اذا قال للشيء كن فيكون.

ولان الانسان دائم المراوغة والمكر وعدم الرضا بما مقسوم له احتاج الأمر لان يكون هناك تأكيد على أحقية القدرة الالهية في القضاء على المكر الانساني. فجملة ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ ﴾ دلالة صريحة على استمرار الانسان في غيه ومحاولة الافلات من كل القيود الفوقية إلاّ ان النتيجة جاءت سريعة منه تعالى بقوله: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴾ . أي ان العقاب سيكون قريبا فلا خلاص من قبضته تعالى مهما حاول الانسان الاستمرار في غيه وعصيانه.وهذا يعني ان الجملة المؤكدة حققت التأكيد والاهتمام في الوقت نفسه لان " أداة التوكيد انّ قد تحتمل في تركيب واحد معنى التوكيد ومعنى الاهتمام " (١٧) .

وعليه فان الجمل المؤكدة الثلاث كانت كالاتي:

١ – كل واحدة منها مثلت القفل النهائي للمضمون الجزئي فجملة ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ﴾ مثلت محور الختام لتدبر الانسان عملية خلقه وموته، وجملة ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ ﴾ مثلت محور الختام بعد القسم الثاني اذ لا شيء بعد كلام الله تعالى فهو متحقق وواقع لا محالة لزيادة اليقين في النفس الانسانية، في حين مثلت جملة ﴿ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ ﴾ خلاصة الخلاصة بان لا مفر من عقاب الله وهو قريب. وعليه فالنتيجة هي غلبة القدرة الالهية على التعالي الانساني.

٢ – جاءت الجمل الثلاثة بتتابع متناسق بحسب الفواصل المضمونية، اذ كانت الانتقالة من محور لآخر انتقالة مدروسة؛ إذ جعلت السياق النصي التركيبي مؤثرا في المقابل وقدم أفكاره الدلالية بسلاسة.

٣ – مثلت الجمل الثلاث محور التحدي الالهي للانسان، فالله سبحانه وتعالى قاهر لعباده وكلامه نافذ ولا مجال للمماطلة وأمره قاطع وأتى لا محالة.

٤ – حقق التؤكيد بـ (انّ، واللام المزحلقة) غاية التأكيد والتأثير في النفس الانسانية واحتمل بعدين أحدهما ظاهري يفهمه العامة من الناس؛ والآخر باطني يفهمه أهل الاختصاص والمبحرون في العلم، وقد أوضح عبد الفتاح لاشين هذا بقوله : " ويثبت عبد القاهر بهذا كله ان التركيب اللغوي المبدوء بـ(ان) لم يقصد به فقط التأكيد الظاهري والمعنى الأول المفهوم من اللفظ لغة، وانما يأتي التوكيد لاغراض يفهمها أهل الذوق والمتخصصون من ذوي اللغة " [١٨].

ثالثا: الأفعال والصفات

تتجذر في السياق النصي التركيبي لهذه السورة مجموعة من الافعال والصفات التي تعمل على تحريك الدلالة وجعلها مؤثرة في النفوس، فالصياغة التركيبية في هذه السورة انبنت على ازدواجية التراكب بين الافعال والصفات لاداء مهام الدلالة المتبلورة في التحدي الالهي للانسان من خلال تدبر خلقه وضعف حيلته تجاه تحدي الخالق. واستنادا الى عملية الخلق الانساني التي هي بتوالد مستمر فان الدلالة تطلبت ان يكون السياق التركيبي متلائما لنسج معالم التوافق بين الاثنين معا. أي بين النسج التركيبي والمعالم الدلالية. ويمكن ايضاح ذلك على وفق أهمية الافعال والصفات معا:

١ – الافعال: (الفعل المضارع)

تعد الافعال من ضرورات التكوين التركيبي و من خلالها يتم الافصاح عن كينونة المعاني المراد بثها في أي نص، وتصبح هذه الافعال أكثر فاعلية في تقديم الدلالة عندما تعمل في اطار نسيج تركيبي جديد ينزاح عن القواعد المألوفة، ويخرج من دائرة التصرف المقيد الى ميدان تعدد الوجوه الدلالية، ويحقق النسيج التركيبي بذلك سبق التميز لان الافعال تشظت منها معاني جديدة تخدم توجه القائل وما يبثه من أفكار.

وبحدود معطيات النسيج التركيبي في سورة الطارق نجد ان الافعال انحصرت في قالب واحد هو الحاضر المستمر ليتناسب ذلك مع عملية الخلق الانساني التي هي مستمرة الى قيام الساعة. أي ان الدلالة احتاجت الى التركيب الذي يتوافق معها ويحقق لها ابعادها.ولايضاح ذلك نجد ان الفعل المضارع كان أكثر تحركا على مساحة النص بنسبة ورود بلغت سبع مرات لتعمل الدلالة على نطاق الحاضر والمستقبل في الوقت نفسه؛ لان عملية الخلق الانساني حاضرة ومستمرة في المستقبل حتى قيام الساعة، وهذا تحقق عن طريق الفعل المضارع الذي هو في اصله يستعمل " للدلالة على معناه و هو وقوع الحدث في الحال أو في الاستقبال " [١٩]، في حين ورد الماضي في صيغة الفعل المبني للمجهول (خلق) ليتناسب ذلك مع الاستمرارية في الخلق وانتفاء التأثير الماضوي على النص لايقافه، أما فعل الأمر فجاء كالماضي مرة واحدة (مهّل) وهو فعل مثل ختام التحدي الالهي للانسان لانه تعالى امهلهم كثيرا والعقاب آت وهو قريب بدلالة (رويدا)، أي لم يبق من المهلة سوى القليل.

وللعودة الى أهمية الفعل المضارع وما حققه من كسب على صعيد الانبناء الدلالي نجد انه توزع بصورة متوازنة على مدار النص ومثل انتقالات ناسبت انتقالات الموضوع، فالفعل (ادرى) جاء معلنا خيبة الانسان بشأن جهله كنه الطارق، فهو لا يدري ماهو؟ وما حجم قوته؟ ومدى تأثيره وما نحو ذلك، و هذا يعني ان جهل الانسان مستمرا وسيتمر في هذا الجانب لان دلالة الفعل المضارع آنية وعليه سيستمر السؤال عن الطارق الى الأبد.

وبعد فرغ النص من القسم وما صاحبه من ترسيم دلالي، انتقل هذه المرة ليعلن الوجود الانساني وما ترتب عليه من وجود حافظ يسجل على الانسان ما له وما عليه، فجاء الفعل (ينظر) مفتاحا محيرا للانسان لانه سيتدبر خلقه في كل وقت وحين وهو يجهل سر ذلك الماء الذي يكوّن الروح الانسانية وانه تعالى قادر على ارجاعه الى مكانه واماتته بعد ولادته، وبذلك نجد ان الفعل المضارع حقق فعل الاستمرارية لتواصلية الحياة الى يوم القيامة، كما ان الفعل (يخرج) جاء ليوضح عملية الولادة والانبعاث الانساني في الحياة. وبختام عملية الخلق الانساني جاءت النهاية معلنة قيامة الانسان وتطلب ذلك حضور الفعل المضارع (تبلى)؛ فالخاتمة الانسانية ستكون مؤلمة لان الانسان سيكون موضع ضعف فلا قوة له ولا ناصر وهو مغلوب على أمره مهما حاول ويحاول.

ولتشكيل الحزمة الدلالية تصاعديا جاء الفعل المضارع (امهل) مفتاحا أغلق الارادة الانسانية الشريرة الممثلة بفعل الكيد، ففرصة المعاندين والمكابرين الذين يكيدون المكايد مفتوحة لدلالة الانفتاح الزمني في الفعل المضارع إلاّ ان هذا الزمن حدد بتقريب زمني قوامه (رويدا) أي ان العقاب سيكون قريبا.

وعلى وفق ما تقدم يمكن ايضاح التوزيع المتناسق للفعل المضارع الذي تناسب مع الدلالة غير المقيدة وعلى النحو الآتي:

القسم – وما ادراك ما الطارق

الخلق (الوجود) الانساني – فلينظر الانسان مما خلق

عملية التوالد الانساني – يخرج من بين الصلب

قيامته – يوم تبلى السرائر

نهاية الارادة الانسانية – يكيدون، أكيد، أمهلهم رويدا

٢ – الصفات: (اسم الفاعل)

تمثل الصفات أحد الأركان الرئيسة في عملية الصوغ التركيبي ولا سيما اذا ما كان الذتاج ابداعيا أدبيا ومتخذا من الانزياحات والخروج عن المألوف وتدا يستند

اليه. وتدل الصفات في أصلها على الموصوف بالحدث وهي بذلك تبتعد عن ميدان الفعل الذي يتكىء على امتشاج الحدث بالزمن، فالفعل بالعربية يختص " من بين أقسام الكلم بالتعبير عن الحدث المقترن بزمان مُحصّل " [٢٠]، وان الفعل كما يذكر فاضل السامرائي " يفيد التجدد والحدوث " [٢١]. وهذا ما يتقاطع مع عمل الصفات. فاسم الفاعل وقعه أكبر من الفعل لانه يدل على الحدث والحدوث في الوقت نفسه، والمقصود بالحدث معنى المصدر؛ وبالحدوث ما يقابل الثبوت؛ فعلى سبيل المثال نجد ان اسم الفاعل (قائم) يدل على القيام وهوالحدث؛ وعلى الجدوث أي التغير فالقيام ليس ملازما لصاحبه؛ كما انه يدل على ذات الفاعل .[٢٢].

وفي اطار سورة الطارق نجد ان صيغة اسم الفاعل قد تسيّدت على مجريات الصوغ التركيبي مما أفضت الى ترسيخ دعائم الدلالة وزيادة الوقع الايقاعي في الوقت نفسه ومهمة هذا الترسيخ تمثلت باستمالة الذهنية العقلية ومحاولة جعلها فاعلة في تشكيل الانبناء الدلالي في السورة كلها. كما ان ورود اسم الفاعل في تسعة مواضع جاء بتناسق مدروس لتحميل الدلالة دفعة من التكثيف والتوجيه، ولا سيما ان ذلك تحقق عبر شبكة التواصل الايقاعية التي جعلت النص وحدة عضوية متكاملة. هذه الصيغة لها وقعها الصوتي عبر مد حرف (الالف) الزائد على الفعل اساسا لزيادة التركيز على بؤرة الدلالة المتشظية.اي انها صيغة لم تأت من فراغ، بل من عمق تأصيل المعنى واكساب النص دلالات وفيرة، حتى اننا نجد ان صيغة احدى الجمل قد تبدلت عبر هذه الصيغة لكي يأتي الدال متلازما مع سابقه ولاحقه..فقوله تعالى: (خلق من ماء دافق) هي صيغة متحولة من حيث استعمال الدال (دافق) ليكون شبيها بالدوال الأخرى؛ فالمقصود انه خلق من ماء مدفوق وليس من ماء دافق.أي يجب ان يأتي الدال (دافق) بصيغة اسم المفعول (مدفوق) حتى يصح القياس، إلاّ ان التركيب السياقي خرج عن المألوف وتطلب صيغة أخرى لتتؤاءم دواله جميعا.لذا فاستعان بصيغة اسم الفاعل بدلا عن اسم المفعول. وهذا ما يدل على ان صيغة اسم

الفاعل صيغة مقصودة لتحقيق غاية ما. كما ان العلاقة بين المفردتين هي علاقة فاعلية تقبع في اسلوب المجاز العقلي.

ولو تدبرنا الانتقالات المتوالية لصيغة اسم الفاعل على الاديم الموضعي نجد انها جاءت قفلا انتهت به كل الآيات التي وردت بها، و هذا يعني ان شدة الوقع الايقاعي وما يصاحبه من لفت لانتباه السامع وتحقيق غاية التأثير والتأثر ضاعف التمثيل الدلالي في السورة لان نهايات الفواصل لها مدلولات أعمق واكثر فائدة. وللايضاح أكثر يمكن النظر الى التقسيم الآتي:

القسم – الطارق، ما الطارق، النجم الثاقب

الخلق (الوجود) الانساني – عليها حافظ

عملية التوالد الانساني – ماء دافق، الصلب والترائب

موته – على رجعه لقادر

قيامته – يوم تبلى السرائر، فما له من قوة ولا ناصر

فعلى وفق التقسيم الماثل أمامنا يتراءى لنا ان اختيار المفردات بصيغة اسم الفاعل جاءت متواشجة مع المضامين المتعددة التي كونت في النهاية البؤرة الدلالية العامة الممثلة بالتحدي الالهي للانسان. فالطارق تمحورت ميزته بالثقب، فمفردة الثاقب ناسبت القوة الجبارة المتبلورة بالنجم الطارق، ليأتي الانطباع بذلك ان القوة الالهية لا مثيل لها، لان صنيع الله تعالى الممثل بالطارق كان شديد الوقع على الانسان فكيف الحال بصنيع الكون كله وجميع الموجودات.كما ان النفس الانسانية يجب ان يكون عليها رقيب يسجل عليها الحسنات والسيئات لتأتي النهاية فاصلة على وفق ما تم تسجيله، ولهذا حققت مفردة (حافظ) ملمحا دلاليا واقعا لا مساومة فيه.

وعندما بدأت عملية التوالد الانساني فضل السياق التركيبي التركيز على مفردتين هما الأساس في النشأة الانسانية (دافق، الترائب). فالانسان أصله من ذلك الماء الذي يخرج مدفوقا سريعا من صلب الرجل وترائب المرأة، ولهذا عندما جاء اسم الفاعل في خاتمة الآيتين عمل على زيادة الانتباه ولفت النظر الى أهم ما في

الخلق الانساني وهو الماء الخارج من الصلب والترائب وبذلك تموضعت الصيغة في مكان ملائم من سلم التصاعد الدلالي.

ومثلما للشيء بداية كذلك النهاية عنوانه، فالنشأة الانسانية تطلبت قوة تجعل تلك النشأة هباء منثور وتحقق ذلك عبر فعل الموت، هذا الفعل لا يمكن ان يظهر على السطح ما لم تكن هنا قدرة جبارة تعمل على جعل المستحيل من الوجهة الانسانية ممكن من الوجهة الالهية، لهذا توعد الله تعالى الانسان بالموت فاختار صيغة القدرة والنفاذ والسلطة المطلقة وتمثل ذلك بمفردة (لقادر)، فهو قادر على كل شيء بما في ذلك موته. وعليه ناسبت مفردة (قادر) التوجه الدلالي واعطته دفعة من التكثيف.

وبعد البعث والنشور ينتظر الانسان حسابه، فتنكشف الاعيبه وحيله واعماله لهذا وردت مفردة (السرائر) لتعلن الاهلية في احتواء المعاني المتعددة. لان كشف الحجاب عن الشيء وفضح المستور هو أعظم شيء يهابه الانسان، وعليه تضمنت مفردة السرائر كل تلك الارهاصات وكانت بحق في مكانها وسط التمثيل الدلالي، وبعد كشف المستور لا يستطيع الانسان الدفاع عن نفسه باستخدام الاعيب المكر والخديعة فتخسر كفته لان الله سبحانه وتعالى قد جرّده من المناصرين. فناسبت مفردة (ناصر) المحتوى الموضوعي هنا فلا ناصر للانسان يوم الحساب سوى ما قدم من اعمال صالحة.

وفي ضوء ما تقدم يتراءى لنا ان التوا شج الحاصل بين الصوغ التركيبي والانبناء الدلالي قوامه التناسق والتناسب الحاصل بين المفردات والمعاني، على مستوى الجملة أولا، وعلى مستوى السياق ثانيا.

المحور الثالث: المستوى الايقاعي

تمثل الضربات الايقاعي في أي نص ولا سيما اذا ما تواترت على نحو لافت للنظر وحدات اسلوبية تستدعي كشف الحجب عنها لمعرفة قيمتها ومزايا مجيئها.

فالنص وبحسب انتمائه الى الشعر أو النثر تتناثر فوق أديمه مجموعة من الوحدات الايقاعية مهمتها احداث المتعة النغمية في النفوس؛ فضلا عن زيادة التكثيف الدلالي وايصال المعنى بسرعة، أي انه " يؤدي الى تعميق الدلالة وتكثيفها من ناحية، واسهامه في اضفاء دلالات لا يمكن للسياق وحده أن يحققها من ناحية ثانية " (٢٣). والعنصر الايقاعي في أي النص هو دائم الارتباط بالعناصر الأخرى البانية له، وبتفاعل العناصر مع بعضها تتوالد المزايا الابداعية الجديدة بحسب التلونات الادائية التي تؤديها العناصر مجموعة أو اشتغالها لوحدها في حدود النص. واهم التفاعلات تلك التي تحصل بين الايقاع واللغة، فهما صنوان متلازمان لخدمة السياق النصي وانبعاث الوجه الدلالي، وهذا يعني ان الايقاع يمثل ضربة " موسيقية ترتبط ارتباطا حميما بموسيقى اللغة وتركيبها الايقاعي من جهة، وبطبيعة التشكيلات الموسيقية التي نمّتها الفاعلية الفنية العربية من جهة أخرى " (٢٤) .

ولاهمية الوقع الايقاعي في لفت انتباه القارىء وتقريب الوجهة الدلالية الى ذهنه لتحصل عملية الفهم والفائدة فاننا في هذا المستوى سجلنا أربع وحدات ايقاعية شكلت هيكلا اسلوبيا وهي وحدات متواشجة مع الدلالة والتراكيب وهي كالآتي:

١-الجرس الموسيقي عبر (الشدة)

حمل السياق القرآني في هذه السورة الكريمة ملامح مستبانة مستضاءة من الوقفات الصوتية التي امتشجت مع المعنى لانتاج الدلالة، وهي وقفات اقترنت بدوال توزعت على مساحة النص وقد شكلت بذلك بناء اسلوبيا يستحق الوقوف عليه. فالجرس الموسيقي الذي يحققه الدال الواحد بميزاته من النبر وكذلك عبر (الشدة) في التلفظ والاطالة كما هي الحال في هذه السورة يحقق ضربات موحية تلفت انتباه القارىء اليها مباشرة لمعرفة مغزاها ولا سيما اذا ما جاءت الدوال بتواتر متعدد ضمن السياق؛ فالدال لا ينحصر اداءه بما يقدمه من معنى، بل يعمل على انتاج غنّة ايقاعية تميزه عن باقي الدوال. وهذا يعني ان " الجرس يقع في مفردات معينة تأخذ مكانها ضمن نطاق التركيب من أجل تعميق المعنى والدلالة الصوتية معا " (٢٥) .

ولكي لا نطيل أكثر فان هذه السورة المباركة تستوقفنا من حيث الضربات الايقاعية التي تدخل في آذاننا من دون هوادة وهي مفعمة بالمدلولات وباشكال مختلفة، ولا يهمنا هنا سوى بيان قيمة الجرس للدال الأكثر وقعا والذي جاء هنا بتكرارات عدّة من خلال استعمال (الشدّة) التي تحدث اطالة في التلفظ بالدال الذي يحملها، فالسورة بآياتها القصيرة والقليلة التي هي [١٧] آية حملت العديد من تلك الدوال وهي (والسّماء-والطّارق- ما الطّارق- النّجم-الثّاقب- كلّ- لمآ- ممّ- الصّلب- التّرائب- انّه- السّرائر- قوّة-والسّماء- الرّجع- الصّدع- انّه- انّهم- فمهّل).فهذه الدوال التي تتطلب النبر عند تلفظها لم تأت عبثا بقدر ماهي متواشجة في رسم أبعاد الدلالة، وهذه يعني انها أدت وظيفتها في النص، فهي تؤدي " وظيفة فنية في تشكيل الصورة وابراز معالمها على نحو يتعذر معه الحكم عليها بمقتضى معيار البلاغيين " [٢٦]؛ فالاطالة في التلفظ اقترنت مع بيان قدرة الله تعالى، ولاسيما ان الدال الاول (والسّماء) الذي هو القسم قد افتتح مشروع الايقاع المتواشج مع القدرة الالهية وبمجيئها هكذا تلزم القارىء بتدبر قيمتها ووقعها.

هذه الاطالة في الصوت عبر (الشدة) وتحقيق الذبرة الجرسية جاءت متلاءمة مع الاطالة التي يسمح بها تلفظ الدوال التي جاءت بهيئة اسم الفاعل.اذ ان حرف الالف يسمح للمتلفظ اخذ فسحة طويلة بالنبر للوصول الى الوقفة، وبالتحام دوال اسم الفاعل بالدوال المشددة تصبح السورة على الرغم من قلّة عدد آياتها كأنها طويلة. وهذا كله نابع من طبيعة الالفاظ الواردة في السياق النصي .

٢- تكرار الحرف (الصوت)

لا يمكن ان يشكل الصوت (الحرف) لوحده أي ميزة أو قيمة تذكر ما لم يقبع في دال معين، فهو يفعّل هذا الدال أو ذاك ويكسبه سمة التميز اذا ما تكرر ضمن نطاقه، فضلا عن ان تكراره ضمن اطار دوال متعددة داخل نص ما يؤدي الى احداث انطباع فني خاص يستهوي القارىء.فالصوت يمثل في " المفردة الواحدة وقعا

ايقاعيا ومعنويا لا يمكن تجاهله باي شكل من الاشكال، وهو اذا ما تواتر في المفردة الواحدة مرات عدّة فانه يعطي نغما نحسّه ونشعر به " [٢٧] .

وتكرار الحروف ضمن الدال أو مجموعة الدوال لا يكون مكروها او قبيحا إلاّ اذا جاء بمبالغة لا تخدم النص، فهو يمثل بتوزيعه الشامل بالدوال المكونة للسياق حركية جوهرية تفضي بجمالية موسيقية خاصة تدخل في المسامع من دون هوادة، لان " لكل عنصر صوتي في العربية قيمة في اعطاء الكلمة صيغتها الوزنية " [٢٨].

والصوت بحسب ذلك يوحي بانطباع عام عن المعنى المراد لان علاقة الصوت بالمعنى علاقة جدلية ترابطية اذا ما كان السياق مشحونا بها.أي ان الصوت تبعا لذلك يتمتع بوظيفتين " احدهما ايجابية والأخرى سلبية، اما الاولى فحيث يساعد في تحديد معنى الكلمة التي تحتوي عليه، واما الثانية فحيث يحتفظ بالفرق بين هذه الكلمات والكلمات الأخرى " [٢٩].

وفي ضوء ذلك يمكن ان نسجل تكرار مجموعة من الحروف في سورة الطارق لبيان أهميتها من حيث تحقيقها الانسيابية الايقاعية.

إنّ تواتر ثلاثة حروف وهي (الالف-٣٠ مرة-والراء-١٥ مرة-والواو-١٣-مرة) لم يأت اعتباطا بقدر ما اعطى للنص القرآني قيمته في تحقيق التوازن الانفعالي في شعور القارىء وهزّه وجذبه لمعطياته، فحرف الالف -وهو من حروف الحلق الانفجارية- القابع على نحو كبير في دوال اسم الفاعل اعطى للنص مجالا للتلفظ بسبب امتداده الصوتي وما يحدثه من غنّة مركزة تسمح بالتنفس وشد التركيز اليه، فهو يعطي خصوصية عالية للدال المتواجد فيه. وهي دوال تحمل طاقات ايحائية للتعبير عن الدلالة. اذ ان دلالة التذكير بعظمته المقترنة بالقسم والعظمة الالهية بالخلق واعطاء الانسان مهلة للاصلاح والتوبة جاءت متواشجة مع ايقاع الاطالة الذي يزيد من فاعلية التأكيد بوساطة حرف المد الالف؛ ففي كل دال توجد اطالة بسبب المد المفتوح تريح القارىء عند سماعها.

وبسبب دلالة البيان بالقدرة الربانية التي تم التأكيد عليها بصوت الالف تكرر حرف (الراء) ليعبر الى جانب وقعه النغمي العذب في النفس عن تقريرية الدلالة؛ فصوت (الراء) ذو الرقة الجذابة في السمع والخفة المتزنة وما يحققه من نغمة هادئة ومريحة شكّل بتواتره ملمحا فنيا سمح للدلالة الانسياب والتقرير وتخفيف وطأة الوقع الايقاعي عبر مد الالف الوارد للتأكيد. أي انه خلق حالة من الاتزان جعل من قراءة السورة محببة ايقاعيا. فهو يعاكس حرف المد الالف الذي يطيل الصوت الى فوق عن طريق تنزيل النغمة الى تحت، فالنبرة المرتفعة والمحلقة عاليا قابلتها نبرة سفلى لتحقيق حالة التوازي والتكافؤ.

أمّا حرف (الواو) فان ميزته ضمن السياق القرآني في هذه السورة هو تكثيف الايقاع والدلالة معا. اذ ان تواتره (١٣ مرة) خلق ايقاعا محبوكا متناسقا واثار حواس السمع.فقد توزع على نحو شبه متساو في السورة كلها مما جعل الحركة الايقاعية مسترسلة ومتواصلة تستطرب لها الاذهان من جهة، وحفاظا على الاستمرار الدلالي من جهة أخرى. كما ورد حرف (الواو) على شكلين: الأول ورد في القسم الذي جاء مرتين وذلك في بداية السورة ﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ﴾ وفي وسطها ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ۝١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ۝١٢ ﴾. فتكراره هنا زاد من فاعلية الدلالة. أمّا الشكل الثاني فانه ورد كحرف عطف لتقرير الدلالة وتحقيق نغمة هادئة مستحبة.فبعد افتتاح السورة بالقسم عبر الواو جاء العطف لبيان المغزى الحقيقي .أي انه أدى دورا ايضاحيا من خلال ربط الجمل بعضها مع بعض لاستكمال المطلوب الايضاحي.

٣-التكرار اللفظي (دوال)

يشكل التكرار بتتابع مجيئه نظاما موسيقا يفيد في تقوية الدلالات واكسابها دفعة من الحيوية، فهو يتمتع بوظيفتين: الأولى وظيفة موسيقية تجعل النص ذا سلاسة مقبولة تدخل في القلوب مباشرة. والثانية وظيفة دلالية تفصح عن مكنونات هذا التكرار وما حمله من مدلولات معبرة تضعنا ازاء فكرة النص الرئيسة. ومع هذه الأهمية المزدوجة فانه يتوجب عدم طغيان أحدهما على الآخر لكي لا يحصل الخلل،

بـل ضـرورة المواءمـة بينهمـا، فعلـى وفـق " الـتلاؤم بـين الـدور الايقـاعي والـدور المعنوي الذي تؤديه المفردات المكررة فانه ينبغي التنبّه الى مسألة تحقيق التوافق بين الايقاع والمعنى في حدود التكرار، وعدم الاهتمام باحدهما على حساب الآخر؛ لان ذلك سيؤدي الى التقليل من أهمية وجوده " (٣٠).

ويشكل التكرار اللفظي أحد الاضرب المهمة في رفد المعنى وتكثيفه، وهو يحمـل نغمـا ايقاعيـا مـؤثرا اذا مـا جـاء بتناسـق مـدروس، فاللفظـة الواحـدة بطبيعـة صياغتها تحمل " نغما تعبيريا يميزها عن غيرها في الاستحسان والقبول، وان أي تغيّر في هذا النغم يفقد اللفظة قيمتها " (٣١). فكيف اذا ما تكررت اللفظة على مدار النص كله. وعليه فان التكرار اللفظي اذا ما جيىء به بتتابع في النص فانه يحمل مدلولات معينة، إلاّ اذا كان تكرارا مملا لا يحمل صفات الامتلاء المدلولي أو الوقع الصوتي.

لذا فان السورة المباركة حملت بين طياتها تكرارا لفظيا له قيمته وليس شيئا طارئا وهو تكرار مكون بحسب قراءتنا من أربعة اشكال هي كالآتي:

الشكل الأول: ورد الدال (الطارق –ما الطارق) في بداية السورة وهو تكرار اتحدت نبراته الصوتية مع مدلول العظمة وهي بداية تذكير الانسان بقدرة الله تعالى واحسانه اليه بدلالة ان الشكل الثاني جاء تقريرا لهذا البيان والعظمة الربانية من حيث تذكير الانسان بعظمته تعالى على خلقه ومن أي شيء خلق، فجاء التكرار عبر قوله (فلينظر الانسان ممّ خلق*خلق من ماء دافق) فهنا مواءمة مع التكرار الأول دلاليا.كما ان مجيء (الالف واللام) مع مفردة الانسان لها دلالتها العامة بانه يجب على كل انسان ان يتفكر في خلقه.اذ ان (الالف واللام) هي جنسية استغراقية يمكن الاستعاضة عنها بمفردة (كلّ) فالتقدير يصبح (فلينظر كل انسان ممّ خلق).ولزيادة لحمة النبر الايقاعي ولفت انتباه القارىء الى ذلك يطالعنا قوله تعالى: (انهم يكيدون كيدا * واكيد كيدا) وهذ هو الشكل الثالث؛ فهنا أربعة دوال قد تكررت في آيتين

قصيرتين جعلت الضربة الموسيقية تنفذ الى الآذان من دون استئذان وتحقق التوازن الايقاعي، في الوقت الذي فيه الارتباط الدلالي لم ينفلت من التكرارات السابقة.

كما نجد ان بعد تقرير قدرة الخالق بصنيعه تسير الدلالة لتفصح عن ان هناك كيدا من الانسان ومنه تعالى على الرغم من عدم مشروعية كيد الانسان كونه يقع في الخبث والحرام على العكس من كيده تعالى الذي يصب في مصلحة الحق وارجاع الانسان الى صوابه.كما ان الدوال الاربعة حققت عبر ترنيماتها الايقاعية الصوتية تأكيدا على المدلول، وذلك بوساطة حرف (الياء) الذي استدعى اطالة اللفظ به لزيادة فعالية التأكيد على المكر والكيد.

وبعد الابتداء بالتكرار في أول السورة والتوازي الحاصل في الداخل من حيث ايجاد تكرارين تختتم السورة بتكرار لفظي آخر يحمل ميزة الذبر والامتزاج الدلالي وهو يمثل الشكل الرابع.اذ نجد ان الدال (مهّل) اعطى للنص قيمته عبر (الشدة) التي اعطت فسحة الاطالة الى جانب حرف (الهاء) الذي اعطى هو الآخر ميزة للاسترخاء والتمدد الصوتي، وكذلك الحال بالنسبة للدال (امهلهم).

وبالعودة الى التلاحم الدلالي فان الآية الأخيرة جاءت لاعطاء كل ما سبق من تذكير وتدبر قوة الخالق والكيد المقابل القرار النهائي وهو امهالهم فرصة أخرى لعلّهم يصلحون ويتوبون (فمهّل الكافرين أمهلهم رويدا).

ونخلص من كل ذلك ان التكرار جاء في البداية والوسط والنهاية وبمدلولات متتابعة، وكوّن في النهاية الدلالة العامة بان رحمته تعالى وسعت كل شيء ومهما فعل الانسان فان الخالق يمهله علّه يصلح ويبادر الى الخير.

ويمكن ايضاح ذلك كالآتي:

أول السورة- الطارق – ما الطارق

وسط السورة- مما خلق- خلق من..

يكيدون كيدا - واكيد كيدا

خاتمة السورة – فمهّل - امهلهم..

٤ - التوازي

يعد التوازي باشكاله المتعددة (الصوتي والدلالي والتركيبي) من الأساليب التي تغذي مضمون النص وتجعل منه نظاما ذا تماثلات متناغمة تبعث في النفوس الانتباه لاستكناه مدلولاتها، وهو اسلوب قد يأتي عفويا في ثنايا النص أو قد يتقصّده الباث للنص لاستمالة القارىء اليه وتفحص قيمته عبر شحنات المعاني الايحائية التي يحملها، والراحة التي تتحقق في السمع.

والتوازي كما يعرّفه عدنان بن ذريل هو " مفهوم ألسني بلاغي يتعلق ببنية العبارة ودلالتها والخصوصية الأساسية له انه تناظر بين جمل العبارة يقوم على استعادة مخطط اسنادي واحد اسمي وفعلي " (٣٢). وهذا يتحقق عبر اللغة الخارجة عن المألوف والمتصاهرة مع العناصر الأخرى في النص لان مهمة اللغة لا تنحصر بما تقدمه من الفاظ متعددة ومعان متقابلة بقدر ما هي تنطوي على أشياء أخرى أهم واكبر منها التركيز على النواحي الوجدانية والعاطفية والموسيقية المتنوعة، فضلا عن الايماءات والاشارات والرموز وغير ذلك. (٣٣).

وبعد ذلك يمكن بيان التوازي الصوتي الموجود في السورة المباركة وقيمته في لفت انتباه القارىء وجعله مشاركا فعليا في رسم أبعاد الدلالة التي جاء من اجلها، فالتوازي جاء من حيث الوقفات في نهاية الآيات عن طريق اختيار أحرف تتوافق فيما بينها.إذ نجد ان كل آيتين من السورة التزمت لنفسها حرفا محددا وبتتابع صوتي متقارب من حيث عدد الكلمات في الآية.وهذا ما يضع القارىء في قمة الاستعداد وتهيئة وعيه لاستقبال التتابعات الصوتية من دون تجاوزها. ويمكن بيان التوازيات على النحو الآتي:

والسّماء والطارق * وما ادراك ما الطارق

النجم الثاقب * يخرج من بين الصلب والترائب

فلينظر الانسان ممّ خلق * خلق من ماء دافق

انه على رجعه لقادر * فما له من قوة ولا ناصر

والسماء ذات الرجع * والارض ذات الصدع

انه لقول فصل * وما هو بالهزل

انهم يكيدون كيدا * واكيد كيدا

هذه المتقابلات المتوازية التي وردت بنسق متواشج احدثت متعة ايقاعية فريدة لكونها انحسرت في سورة صغيرة فاربع عشرة آية جاءت متوازية من اصل سبع عشرة آية، وهذا يعني تشظي الايقاع الى مديات واسعة.

هذا التواتر عبر التوازي فعّل النص وشحنه بمدلولات وايحاءات متعددة أتفقت في مجملها مع تأكيد نبرة العظمة الربانية في الخلق واعطاء الانسان فرصة الخلاص من كل ذنوبه بامهاله مهلة أخرى.

وعليه فان التركيز على اطالة الصوت (الجرس الموسيقي) والتكرار الحرفي واللفظي والتماثلات عبر التوازي ما هي إلاّ تأكيدات مستبانة للمدلولات. فهي تصل الى وعينا بعمق وايضاح وتطبع في الذهن ولا تخرج. وهذا يعني انها لم تأت في السورة عبر السرد التقريري الواضح، بل عبر جملة من الجرعات والشحنات الموسيقية ذات الوقع في النفس، وهذا يؤدي بالنتيجة الى زيادة لحمة التواشج من حيث شد انتباهنا لاستكناه الدلالات وتقبل السورة باطمئنان وراحة بحسب التماثلات الايقاعية التي وقعت عليها هذه المسؤولية.

الهوامش

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدّواية من علم التفسير: ٤١٥/٥.

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل – ضبط وتوثيق أبي عبد الله الداني بن منذر آل ز هوي – دار الكتاب العر بي – بيروت لبنان – ط٣ / ٢٠٠٦: ٥٥١/٣.

(٣) المصدر نفسه: ٥٥٣/٣.

a. شعر ابن الجوزي – دراسة اسلوبية – د. سامي شهاب احمد - دار غيداء للنشر والتوزيع – الاردن – ط ١ / ٢٠١١:٢٧.

(٤) المصدر نفسه: ٢٩.

(٥) سورة الكهف - الآية ٤٩.

(٦) شعر ابن الجوزي: ٧٩.

(٧) المصدر نفسه: ٨٠.

(٨) إبن الشبل البغدادي – حياته وشعره – د.سهى يونس سلمان – دار غيداء للنشر والتوزيع – الاردن – ط ١ / ٢٠١١: ١٨٥.

(٩) السمات الاسلوبية في الخطاب الشعري: ٢٧٦.

(١٠) معاني النحو – دار احياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ط١ / ٢٠٠٧: مج ١٣٥/٤.

(١١) فتح القدير: ٤١٥/٥.

(١٢) المصدر نفسه: ٥٥٢/٥.

(١٣) التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني – دار المريخ للذشر – الرياض – السعودية – ١٧٦:١٩٨٠.

(١٤) المصدر نفسه: ١٧٧.

(١٥) خصاص بناء الجملة القرآنية ودلالاتها البلاغية في تفسير (التحرير والتنوير) – ابرهيم على الجعيد – إشراف الاستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى – جامعة أم القرى – ١٩٩٩ : ٦٤.

(١٦) المصدر نفسه: ٥٦.

(١٧) التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني: ١٧٩.

(١٨) معاني النحو: مج ٢٨٨/٣.

(١٩) السمات الاسلوبية في الخطاب الشعري: ٢٢٢.

(٢٠) معاني الأبنية في العربية: ٩.

(٢١) ينظر: المصدر نفسه: ٤٦.

(٢٢) الخطاب النقدي عند المعتزلة – كريم الوائلي – دار الكتب والوثائق – ٢٢٠:٢٠٠٦.

(٢٣) في البنية الايقاعية للشعر العربي – د. كمال أبو ديب – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد – ط ٣ / ٢٣٠:١٩٨٧. وينظر: الخطاب النقدي عند المعتزلة: ٢١٨.

(٢٤) شعر ابن الجوزي: ١٤١.

(٢٥) جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب – د. ماهر مهدي هلال – دار الحرية للطباعة – بغداد – ١٩٨٠: ١٧٠.

(٢٦) ابن الشبل البغدادي: ٢٦٢.

(٢٧) في البنية الايقاعية للشعر العربي: ٣١٥.

(٢٨) دراسة الصوت اللغوي – د. احمد مختار عمر – عالم الكتب – القاهرة – ط ١ / ١٩٧٦: ١٤٨.

(٢٩) ابن الشبل البغدادي: ٢٦١ – ٢٦٢.

(٣٠) جرس الالفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: ١٧١.

(٣١) الذقد والاسلوبية بين النظرية والتطبيق – دراسة – عدنان بن ذريل – منشورات اتحاد الكتاب العرب – ١٩٨٩ : ٢٧٨.

(٣٢) المصدر نفسه: ١١.